العنوان:	التغذية و الأزمة بالمغرب في العصر المريني
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	نشاط، مصطفى
المجلد/العدد:	مج 6, ع 17
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1999
الصفحات:	5 - 15
رقم MD:	130088
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink, AraBase, HumanIndex
مواضيع:	النظام الغذائي، التغذية ، المغرب، التاريخ، العصر المريني، المجاعة، العادات الغذائية، المواد الغذائية، مكافحة الجوع
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/130088

التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني

ذ . مصطفى نشاط *

ملاحظات أولية :

قبل أن نبسط المعطيات المرتبطة بالشقين المكونين لعنوان المداخلة، ومن خلالهما للمحور الذي اختارته مجموعة البحث في الديموغرافيا التاريخية لهذا اليوم الدراسي، يجدر بنا أن نقف وقفة قد تكون ضرورية لمراقبة التفاعل الذي حصل بين التغذية والأزمة في العصر المريني . فاذا كان الحديث عن مفهوم التغذية عبر العصور قد لايطرح أية مفارقة تاريخية ، فإن استحضار الأزمة باعتبارها مفهوما حديثا يستدعي إبداء بعض الملاحظات الأولية :

1) - سبق لمجموعة من الباحثين - وفي مقدمتهم الأستاذ الراحل محمد زنيبر رحمه الله - في إطار الملتقى الدراسي الذي عقدته الجمعية المغربية للبحث التاريخي حول الأسطغرافيا والأزمة (1) أن أثاروا ملاحظات حول مدى إجرائية استعمال مفهوم الأزمة في المغرب الوسيط.ولا يسعنا إلا أن نؤكد كذلك على عدم استعمال المصادر المرينية لهذه الكلمة ، بل تورد كلمات تحمل شحنات دالة على حدوث اختلال في نظام حياة الناس بفعل نقص المواد الغذائية وكثرة الطلب عليها ، ومن هذه الكلمات الشدة أو البلاء (2) .

2) - إذا كان الحديث عن الأزمة يحيل إلى حالة غير عادية ، فإن المتتبع للأسطغرافية المغربية الوسيطية يلاحظ بها شبه غياب لذكر الحالات العادية ، بل وذكر هذه الحالات لايتم غالبا بالمصادر الإخبارية إلا عرضا ، وذلك عند الحديث عن مظهر من مظاهر الفعل السياسي المتشنج ، كوجود حصار ، أو صراعات سياسية وعسكرية . وفي معظم الأحيان ، تكتفي الأسطغرافية المغربية بوصف الوضعيات القصوى ، فالمواد الغذائية تكثر بفعل الرخاء ، فتنخفض الأثمان ، بينما ترتفع في أوقات الشدة ويقل وجودها ، وقد تنعدم بالأسواق

---

* - أستاذ باحث بكلية الآداب - وجدة .

وأمام ندرة الإشارات المتعلقة بحياة الناس في وثيرتها العادية ، يمكننا أن نتساءل عما إذا لم تكن الأزمات إحدى أوجه الحالات العادية في تاريخ المغرب الوسيط ؟

3) لم تكن مجاعات المغرب الوسيط ناتجة فقط عن التقلبات المناخية ، بل ساهم فيها فعل الإنسان كذلك بفعل الحروب والفتن السياسية. وحينما كانت المجاعات تحل بالمغرب ، فلايبدو أنها عمت كل مناطقه ، والإشارات المتوفرة عنها تهم بالدرجة الأولى الحواضر الكبرى كمراكش وفاس وسبتة. ومن المعلوم أن هذه
الحواضر هي التي احتضنت القسط الأكبر من مظاهر الفعل السياسي بالمغرب الوسيط . فماهي جغرافية المجاعات بالمغرب آنذاك ؟ وهل ظلت البوادي بمنأى عنها ، حينما كانت تجثم على الحواضر ؟

4) - قد يكون من باب تحصيل الحاصل تسجيل ندرة المعطيات الإحصائية بمصادرنا الوسيطية حين حديثها عن الشدة . فكثيرا ما تجنح إلى تقديم صور أدبية بليغة للدلالة على حدوث النزيف الديموغرافي . وحتى الأرقام التي توردها تنطوي في الغالب على المبالغة والتهويل . لقد بسط ابن خلدون بمقدمته سبعة أسباب تسقط المؤرخين في " المغالط " ، ومن هذه الأسباب أنهم " توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب " (3). ولما كانت النفس البشرية ميالة إلى التهويل عندما يتعلق الأمر بتصوير مظاهر الاختلال ، نتساءل عما إذا لم نكن أمام صور كارثية قد لا تعبر عن حقيقة ما جرى ؟

كرونولوجية عامة للجوائح بالمغرب المريني :

لانروم تقديم لوحة ضافية عن تعاقب سنوات المسغبة بالمغرب في العصر المريني ، لاستحالة ذلك في ظل قصور المادة المصدرية المتوفرة عنها . وقد يكون من حسن حظنا أن ابن أبي زرع سجل بآخر كتابه بعض " الأزمات" العارضة بالدولة إلى حدود سنة 726 هـ . بينما اكتفت معظم المصادر الإخبارية بنقل معطياتها عن هذه الأزمات. وأما المصادر المناقبية فلا تشير إلى سنوات الشدة إلا لتبرز دور رجال الولاية والتصوف في مساعدة السكان على التخفيف من حدة المجاعات. ونفس الملاحظة تنسحب على المصادر الاخبارية ، وخاصة الرسمية منها ، إذ تذكر سنوات المجاعة في الغالب مقرونة بدور المخزن المريني في تقديم يد المساعدة للسكان لتجاوز الشدة . لهذا لانستبعد وجود بياضات عن تعاقب سنوات المجاعة بالمادة المصدرية التي تم الاطلاع عليها .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذه المادة سمحت لنا بتتبع بعض سنوات الشدة في العصر المريني ، ووضعها ضمن الجدول التالي :

السنة	مظهر الشدة	المصدر
673 هـ	مجاعة شديدة برجراجة	اثمد العينين ، ج 2 ، ص :209
677 هـ	جراد	الاستقصا ، ج 3 ، ص :89
679 هـ	جراد	القرطاس ، ص : 405

687 هـ	رياح وجفاف	" ص : 408
690 هـ	مجاعـــة	" " "
693 هـ	مجاعــة	" " "
707 - 708	وبـــاء	درة الحجـال ، ج 1 ، ص : 126
711 هـ	جفاف	القرطاس ، ص :398
722 هـ	ريـاح	" " 401
723هـ	مجاعة	" " "
724 هـ	مجاعـة	" " "
726 هـ	جفـاف	الاستقصا ، ج 4 ، ص : 165
749هـ	الطاعون الأسود	ابـن خلـدون ، المقدمـــة ، ص 33:
عهد أبي عنان	سيول عظيمة	فيض العباب ، ص :38
763 هـ	طاعون وجفاف	نفاضة الجراب ، ج 3
766 هـ	طاعون	ابن قنفد ، أنس ، ص : 47
819 هـ	وبـاء	الوزان ، ج 1

يسمح لنا الجدول بإبداء الملاحظات التالية :

_ لايخلو عقد من العقود سلم خلاله المغرب من مظهر من مظاهر الشدة . ولعل هذا ينسجم مع ما ذكره الـوزان بـأن الأوبئـة كـانت تضـرب المغـرب كـل 10 أو 15 أو 25 سـنة (4) . وإذا أضفنا إلى ذلك القحوط وهجوم الجـراد والمضاعفـات السلبية للحـروب التـي طبعـت تـاريخ المغرب الوسيط ، أدركنا أن المجاعة ظلت شبحا مخيفا يتهدد المغاربة باستمرار .

_ الملاحظ أن سنوات الشدة عمرت أحيانا لأكثر من سنة بالمغرب ويبدو أن أصعب الفترات التي عانى خلالها المغاربة في العصر المريني مـن المجاعة ، هي التي امتدت من سنة 722 الى 726هـ وتلك التي زامنـت اجتيـاح الطـاعون الأسـود الـذي حل بـالمغرب سنة 749هـ ، واستمر في حصد ضحاياه إلى حدود سنة 751هـ (5).

_ إذا جاز لنا أن نرتب العوامل التي كانت من وراء المجاعـة بـالمغرب ، فيمكننـا - انطلاقـا من الجدول - ملاحظة أن القحوط كـانت تـأتي فـي مقدمـة هـذه العوامـل ، ثـم تليـها الأوبئـة والجراد . ولاننفي أن تحـدث المجاعـة باجتمـاع هـذه العوامـل كلـها أو اثنيـن منـها . وتجـدر الإشارة إلى أنه كثيرا ما تتحدث المصادر عـن سيادة المجاعـة فـي غيـاب ذكـر العلـة التـي كانت من ورائها.

أصناف الأغذية بالمغرب المريني زمن الشدة :

تورد المصادر عدة أنواع من الأغذية تناولها المغاربة في العصر الوسـيط ، ولربمـا لم يتوسع مصدر في ذكر الأغذية المغربية مثل وصف افريقيا للحسن الوزان - على تـأخره - . بينما تبقى إشارات باقي المصادر متفاوتة الأهمية, فالمصادر المناقبيـة تقدم بعـض الأغذيـة التي تناولها المتصوفة . غير أنه من الصعب أن تتخذ نموذجا عـن أغذيـة معظـم السـكان ،

لأن المتصوفة إنما رام بالدرجة الأولى المجاهدة والابتعاد عن حياة البذخ ، بل والاستنكاف عن الحياة العادية للسكان (6). كما أنه من الصعب التعويل على ما جاء ببعض المصادر التي تخصصت في فن الطبخ - ككتاب فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان لابن الرزين التجيبي الذي ألفه ما بين 636 هـ و640 هـ - واتخاذها مقياسا حقيقيا عن نظام التغذية العادية للسكان ، لأن هذه المصادر تعبر في معظم وصفاتها عن مستوى عيش فئة قليلة من المجتمع كما أنها موجهة " لفتح الشهية ودراسة فزيولوجية الذوق " (7) . أما المصادر الإخبارية - كما سبقت الإشارة - فلاتقدم في الغالب إشارات عن الأغذية ، إلا حينما يتعلق الأمر بوضع استثنائي طبعته المجاعة الناتجة عن الحروب أو القحوط أو الأوبئة. ولاشك أنه في هذا المستوى ، تبرز كتب النوازل أقرب المصادر التي رصدت الحياة اليومية والعادية للسكان ، لارتباط الفقيه والمفتي اللصيق بهموم مجتمعه (8) .

وتأتي الحبوب في مقدمة المواد الغذائية التي تتحدث المصادر عن فقدانها ، أو عن ارتفاع أسعارها ، كلما حلت مجاعة بالمغاربة. وهذا يؤشر على أن القمح والشعير وغيرها من الحبوب شكلت الغذاء الأساسي للسكان (9) ، وليس جزافا أن يخصص ابن الرزين القسم الأول من كتابه لأنواع الأخباز. كما أن الكسكس اعتبر باستمرار " الطبق المغربي " بامتياز، فهو الطبق الذي يكلف قليلا ويشبع كثيرا(10) ،ويحظى بدلالة رمزية لدى المغاربة (11).

غير أن ثمة عدة عوامل تدخلت في تحديد نظام التغذية عند السكان ونوعيته ، مثل مستواهم الاجتماعي وطبيعة المناخ السائد بالمنطقة ، ونوعية تربتها . يقدم العمري لائحة مفصلة عن المزروعات المغربية المنتشرة بكثرة كالقمح والشعير والقطاني ، كما يورد أصنافا من المزروعات القليلة الانتشار بحكم المناخ السائد بالمغرب ، أو بحكم عادات السكان في التغذية ، فالأرز قليل " وما لهم نهمة في أكله ولا عناية به ، ويزرع به السمسم ولكنه ليس بكثير ، ولايعتصر منه بالمغرب شيرج - أي ذهن الجلجلان - ، ولايأكل الشيرج منهم إلا من وصفه له الطبيب ، وإنما أكلهم عوضه الزيت " (12) . ويمكننا من خلال كتاب الوزان أن نتلمس فعل العوامل السابقة في نظام التغذية لدى المغاربة . ونكتفي بخصوص فعل المناخ ونتائجه بإيراد نموذجين ، أحدهما من جنوب المغرب والآخر من شماله . فبجبل تنزيتة - شمال زاكورة - ينبت الشعير بكثرة كاثرة لكن نقص القمح واللحم به عظيم وبجبل بني بوشيبت بالريف ، يقتات الناس بالبصل والسردين المملح ، وخاصة أكثر بالدبس المطبوخ وحساء الفول ، ويعتبرونهما أحسن قوت (13) . ونلمس أثر المستوى الاجتماعي في نظام التغذية من خلال نموذج فاس. فقد كانت العامة تتناول "اللحم الطري مرتين في الأسبوع ، لكن الأعيان يأكلونه مرتين في اليوم حسب شهيتهم "(14).

وبالرغم من اختلاف نوعية التغذية لدى المغاربة حسب المناطق ومستواهم الاجتماعي ، فقد كانوا قادرين في الظروف العادية على ضمان توازنهم الغذائي بالاعتماد على ما توفر لديهم من أغذية ، وذلك بغض النظر عما تحتويه من " سعة حرارية " . غير أنه بحلول المجاعة يختل ذلك التوازن ، وتصبح الحاجة ماسة إلى التكيف معها باللجوء إلى مصادر أخرى في التغذية. وباختلاف حدة الشدة ، أمكننا أن نميز بين مستويين لأصناف الأغذية التي تناولها المغاربة في العصر المريني :

مستوى ندرة المواد الغذائية : تتحدث المصادر المرينية عن حدوث نقص كبير في المواد الغذائية الأساسية خلال بعض السنوات بالمغرب بفعل الأوبئة أو القحوط . وفي هذه الحالة ترتفع أثمانها ، ويتم الحصول عليها بصعوبة كبيرة . ومن الأمثلة عن ذلك ما حدث بمنطقة رجراجة سنة 673 هـ(15)، أو زمن الطاعون الأسود " ، فالإنسان اليوم إذا طلب ما يتقوت به يلقى شدة وعنتا " (16) . ومن مظاهر هذه الشدة ما يقدمه ابن عباد عن الغلاء الفاحش الذي حدث بالمغرب بفعل الوباء في بعض المواد الغذائية ، " فإذا كان المرء يشتري صاع الحنطة بعشرة دراهم أصبح يشتريه بخمسة عشر أو أكثر ، وإن كان يشتري من الباكور أربعين بدرهم ، أصبح بعشرين أو أكثر وقس على ذلك " (17) . وقد يكون من المفيد لو استأنسنا ببعض المعطيات الإحصائية الأخرى التي تقدمها المصادر عن وضعية أسعار المواد الغذائية الأساسية زمن الرخاء وزمن الشدة بالدولة المرينية . ونستدل عن ذلك بما كانت عليه حين اعتلى أبو يوسف يعقوب حكم المغرب سنة 656 هـ ، وبما أصبحت عليه سنة 724هـ ، حينما تعاقبت ثلاثة أعوام من الجفاف على المغرب ، ونمثل هذه المقارنة ضمن الجدول التالي :

المـادة	سعرها سنة 656 هـ (18)	سعرها سنة 724هـ (19)
القمـح	*صحفة القمح = 7 دراهـم	صحفة القمح = 90 دينـارا
الدقيـق	ربع قنطـار = 1 درهـم	أربع أواق = 1 درهـم
اللحـم	مائـة أوقيـة = 1 درهم	5 أواق = 1 درهـم
الزيـت	أربعة أرطال = 1 درهم	أوقيتان = 1 درهـم
العسـل	ثلاثة أرطال = 1 درهـم	أوقيتان = 1 درهـم
السمـن	رطل ونصف = 1 درهم	أوقيـة = نصف درهم

وإذ نقدم هذه المعطيات الإحصائية عن وضعية الأسعار بفترتين من العصر المريني فلا نخفي تحفظنا حول هذه العملية ، لأن تحديد الأسعار يحتاج إلى مراقبة مجموعة من العناصر التي تدخل في صميم علم الاقتصاد ، مثل القدرة الشرائية والقيمة التبادلية للعملة .... وهذا أمر ما زال بعيد المنال عن المهتمين بالتاريخ المغربي في العصر الوسيط . وحسبنا أن نؤكد على أنه في حالة حدوث " أزمات " من هذا النوع ، لم تكن المواد الغذائية الأساسية تختفي نهائيا من الأسواق ، بل كان بإمكان السكان الحصول عليها بصعوبة كبيرة ولكن بأثمان مرتفعة.

- مستوى انعدام المواد الغذائية : شهد المغرب المريني في بعض الفترات مجاعات حادة ، تمثلت مظاهرها في الانعدام الكلي لبعض المواد الغذائية الأساسية. ومن نماذج ذلك سنة 724هـ ، لما " عدمت الخضر بأسرها " (20). وتزداد حدة الوضعية لما تنعدم الحبوب . وآنذاك يلجأ السكان إلى تناول أية مادة تسمح لهم بالتخفيف من روع الجوع ، ومن البقاء والاستمرارية في الحياة . ويأتي نبات إيرني أو أيرنة كما وردت عند ابن عباد (21) في مقدمة المصادر التي كان المغاربة عبر تاريخهم يلجأون إليها كلما حلت بهم مجاعة مروعة (22) . وتكمن طريقة الاستفادة من هذا النبات في سلق جذوره لمرات متعددة للتخلص من السموم التي يحملها ، ثم يعرض للشمس ليجفف ويطحن للحصول على دقيق

يصنع منه خبز يصعب هضمه ، ناهيك عن المضاعفات السلبية التي قد يتسبب فيها إذا لم يتم التخلص من كل سمومه .

ولاشك أن المغاربة في العصر المريني لجأوا الى مصادر أخرى في التغذية تعودوا على تناولها كلما حلت بهم مجاعة شديدة . ومن هذه المصادر فيتور الزيتون والنارنج وعصائد الخروب (23). كما عولوا في مواجهة المجاعة على النباتات البرية مثل الجمار ، وهو قلب النخلة ، وشجر الدوم (24) ، والبلوط والخبيز(25) ، وعناب السدر (26). والواقع أن أسماء عدة نباتات برية تناولها المغاربة زمن المجاعة تستند إلى معطيات محلية خاصة بكل منطقة (27). وما أحوجنا إلى معاجم تاريخية عن معاني النباتات وتطور دلالتها بالمغرب ، على غرار ما قام به ابن الخير الاشبيلي في القرن 6 هـ (28). ومن الملاحظ - من خلال المصادر التي تم الاطلاع عليها - أن المغاربة لم يلجأوا زمن المجاعات الحادة إلى مصادر فضيعة مثل التي عادوا اليها في العصر الموحدي كأكل اللحم الآدمي (29) . ورغم أن الفقيه راشد بن أبي راشد الوليدي أفتى في شأن نازلة تتعلق بمدى شرعية أكل اللحم الآدمي (30) ، فإن ضبط زمنها يبقى أمرا صعبا ، كما هو الحال عموما في أدب النوازل . كما أن فضاعة مصادر التغذية لدى المغاربة في فترات الشدة لم تصل مستوى ما بلغته خلال الحصار المريني لتلمسان ، والذي دام أكثر من ثمانية أعوام . يذكر صاحب روضة النسرين أن الناس لجأوا إلى " أكل الجيف والحشرات وجميع الحيوانات من الفئران والعقارب والحيات والضفادع وغير ذلك ، حتى أكل بعضهم بعضا ، وكانوا يجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابسا ، فيطبخونه ويأكلونه " (31) .

وكيفما كان الأمر ، فالظاهر أن العصر المريني لم يشهد حالات كارثية على مستوى التغذية. وتعج المصادر بالإشارات الدالة على سيادة حالات الرخاء بالدولة المرينية. وإذا كان التحفظ حول إشارات بعض المصادر الرسمية ، كالقرطاس والذخيرة السنية والمسند وفيض العباب يبدو مشروعا ، فلربما قد نطمئن لإشارات ابن خلدون التي استندت غالبا إلى الملاحظة والمعاينة الدقيقة . ونكتفي للدلالة على ذلك بمقارنة يوردها عن وضعية المتسولين بفاس وبتلمسان ووهران . فقد ذكر :" بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا عن أحوال الترف واقتراح المأكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ ... ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر " (32) .

باقي أساليب مواجهة الجوع :

لاشك في أن المجاعات ظلت شبحا مخيفا يتهدد المغاربة باستمرار ، حتى إنها صنعت بعضا من عناصر ذاكرتهم الجماعية في العصر الوسيط. فقد أطلق المصامدة على سنة 615 هـ التي توجت سنوات عجافا إسم سنة "وقليل" لما شهدته من نذرة في المواد الغذائية ، وسمى سكان سبتة سنة 637هـ " بعام سبعة ، وهو مشهور عندهم يتمثلون به بينهم "(33) . ويبدو أن التخوف من المجاعات وهاجس " الأمن الغذائي " ، بالنظر إلى ضعف الإمكانيات الغذائية المحلية لسبتة ، قد ساهم في تكييف سلوك أهلها في الولائم(34). واستمرت المجاعات في نحت الذاكرة الجماعية للمغاربة إلى عهد قريب (35).

ودون أن ننكر أهمية النزيف الذي أحدثته المجاعات بديموغرافية المغرب الوسيط ، ومن ضمنه المغرب المريني (36) ، فلاشك في أن المغاربة تمكنوا من التخفيف من وطأة الجوع ،

ومن الحفاظ على توازنهم البشري باللجوء إلى بعض الأساليب التي تعودوا عليها عبر تاريخهم, فإضافة إلى نجاعة أسلوب " العودة إلى الطبيعة " حسب تعبير روزنبرجي (37) فإنهم تحسبوا للمجاعات بأسلوب الاختزان ، وبإشاعة روح التكافل الاجتماعي فيما بينهم .

لقد تعود السكان على تخزين المواد الغذائية لمواجهة الطوارىء. وتستوقفنا في هذا الصدد وصية لأحد فقهاء سوس نوردها - رغم تأخرها - لأنها تؤشر على أهمية هاجس التخوف من المجاعة عند المغاربة ، وضرورة مواجهتها بأسلوب التخزين . تقول الوصية : " فإن سنى المجاعة لاتجد فيها إلا ما ادخرته في السنين المخصبة ، فعليك بالادخار ، ثم إياك بالسرف ، فادخر ما أمكنك من الإدام والزرع والجلبان واللفت واليابس والهرجان (أي أركان) والخروب وغير ذلكك ، وزريعة كل شيء ، ثم إياك ثم إياك التفريط في التبن فهو تبر لاتبن " (38). وبخصوص سبتة، فبدون أن ننكر قدم لجوء أهلها إلى أسلوب التخزين فإن إشارة ابن عذاري تكشف على أنهم أصبحوا مجبرين منذ مجاعة 637 هـ على الاختزان كل عام نظرا للعواقب الوخيمة التي خلفتها هذه المجاعة " ومن هذا العام صار أهل سبتة يختزنون الطعام في المطامير في كل عام حيطة على أنفسهم من مثل هذه المجاعة التي لم يعهد مثلها في الأعوام الفارطة قبلها "(39). ووصف ابن الخطيب المدينة في القرن الثامن الهجري بأنها " أمينة على الاختزان " (40) وبعد قرن من ذلك ، تحدث الأنصاري - ابن المدينة - عن وجود أربعين ألفا من المطامير لخزن الحبوب (41) وبلغت نجاعة خزن الحبوب أهمية كبيرة لدى المغاربة حتى إن الحبوب المختزنة بمطامير سبتة كان بإمكانها مقاومة الفساد مدة " الستين سنة والسبعين سنة " (42). وفي نفس السياق يذكر الوزان أن سكان مائة بير بدكالة تعودوا على خزن حبوبهم مائة سنة دون أن تفسد أو تتغير رائحتها (43) . وإضافة إلى الحبوب ، لجأ المغاربة إلى خزن مواد أخرى كالخوخ ، وإلى تجفيف العنب و"تصبير" الزيتون وتمليح السمك (43). كما أن السلطة المرينية أوجدت أهراء لخزن الحبوب وتوزيعها على السكان عند المسغبة. ونذكر في هذا السياق أن الفندق الكبير الذي بناه أبو القاسم العزفي كان متكونا من " اثنين وخمسين مخزنا ما بين هري وبيت ، تسع تلك المخازن من قفزان الزرع الآلاف العديدة التي لاتبلغ الحصر" (44). ومن مظاهر مساندة السلطة المرينية للسكان زمن المجاعات أن السلطان أبا سعيد الثاني فتح أعقاب مجاعة سنتي 723 و 724هـ " أهراء الزرع وأخرجه للبيع ، فبيع أربعة دراهم للمد والناس يبيعونه بخمسة عشر درهما " (45). وإضافة إلى تدعيم "القوة الشرائية " للسكان ، بادر أبو سعيد إلى توزيع الصدقات على المحتاجين خلال هذه المجاعة " ، فلم يزل يفرقها بطول أيام الشدة يمر بها الثقات على حارات المدينة فيعطونها أهل التستر والبيوتات وذوي الفاقات والحاجات كل على قدر حاله وضعفه ، فكانوا يأخذونها من دينار ذهبا إلى ربع دينار " (46). ويشير صاحب المسند إلى نفس العمل الإحساني للسلطان أبي الحسن " فكم من سنة مسنهة عال فيها إمامنا رضي الله عنه محاويج أهل بلاد المغرب عموما ، يخرج زرعه المختزن به أود المحاويج عموما في كل ليلة بطول الجذب " (47).

وإلى جانب العمل الإحساني للسلطة ، كان الناس يطلبون مساندة المتصوفة كلما حلت بهم مجاعة ، وقد يكون من باب تحصيل الحاصل القول بأن دور المتصوفة في تاريخ المغرب كان يطفو أكثر في فترات الشدة ، كما هو الحال حين تعم المجاعات . وتحفظ لنا

النصوص المرينية بعض الإشارات عن مبادرة المتصوفة إلى إطعام الجائعين زمن المجاعة ، " والإيثار على الضعفاء والمساكين " (48).

إن الأمثلة التي سقناها عن تدخل السلطة لمساندة السكان زمن المجاعة تتزامن وفترة قوة الدولة المرينية ، ونعلم أن هذه الدولة ظلت محافظة على هيبتها إلى حين نهاية عهد أبي عنان. وقد كان لها قبل هذا العهد من الأسباب ما سمح لها بالتخفيف من روع المجاعات . ولعل من الأمور الملاحظة في هذا الصدد ما ترويه بعض المصادر الرسمية عن حالات الرخاء الذي ساد عهد أبي عنان ، مثل فيض العباب ورحلة ابن بطوطة . ففي هذه الرحلة نقرأ مقارنات بين سعة أحوال المغرب وعسرها بالمشرق الإسلامي ، " فالذي يستعمله أهل مصر من أنواع الإدام لايلتفت إليه بالمغرب " ، " وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة إلا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمنا ،" وقد خرج ابن بطوطة بعد رحلته الطويلة بقناعة مؤداها أن "بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد " (49)، والجدير بالإشارة إلى أنه أقام هذه المقارنات بعد عودته إلى فاس في شعبان من سنة 750هـ ، أي فترة قريبة من زمن الطاعون الأسود !

غير أنه بعد اغتيال أبي عنان ، تضافرت أسباب الوهن على الدولة ، وغابت لديها شروط مواجهة المجاعات ، وغيرها من مظاهر الشدة. ولربما نكون بذلك قد لامسنا ثابتا من ثوابت نظرية الدولة عند ابن خلدون ، والذي خصه بفصل سماه " في وفود العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات ". فعندما تدنو ساعة نهاية الدولة ، تكثر المجاعات والموتان ، وتحدث المجاعات بفعل " قبض الناس أيديهم عن الفلح بسبب ما يقع آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن .... فيقل احتكار الزرع غالبا ... والثمار والضرع على نسبة ، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار ، فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا " (50). هكذا تتضافر المجاعات مع عوامل أخرى تهيء لعصبية تتوفر لها شروط الحكم للإحاطة بالعصبية الحاكمة . ولاغرو أن المجاعات حاضرة بقوة في الفترات الانتقالية للحكم بالمغرب الوسيط ، فهلا تكون المجاعات إحدى المفاتيح الأخرى التي تساعد على تفسير حركية التاريخ المغربي آنذاك ، وما هي حدود التفاعل بين " أزمة الخبز " و " أزمة الحكم " ؟

الهوامش :

1) - الاسطوغرافيا والأزمة ، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة ، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، منشورات كلية الآداب ، الرباط ، 1994 .

2) - ابن أبي زرع : القرطاس ، ص 410 وابن عباد الرندي : الرسائل الكبرى ، مطبعة المعلم الأزرق (حجرية) ، فاس 1320هـ .

3) - ابن خلدون : تاريخ العبر ، ج 1 ، ص 9 ، بيروت 1979.

4) - الوزان : وصف افريقيا ، ج 1 ، ص 68.

5) - حول الطاعون الأسود بالمغرب ، يمكن الرجوع إلى : - البزاز (أمين) : الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م. مجلة كلية الأداب ، الرباط ، عدد 16. _ مصطفى نشاط : من صعوبات البحث في الديموغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط ، الطاعون الأسود نموذجا ، مجلة كلية الآداب ، وجدة ، العدد 6 ، 1996.

6) - أقام المتصوف أبو يعزى ثمان عشرة بالسواحل لا اسم له فيها إلا " أبو لكوط ، وهو النبات المعروف عند العامة بفول أمازير لأنه إنما ينبت غالبا في الأزبال والمزابل وما فيه رائحة الزبل ، ولا يأكله الناس ولا الدواب غالبا ، فكان قوته مما لايشارك فيه الآدميين " . أنظر أحمد التادلي الصومعي ، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى ، تحقيق علي الجاوي منشورات كلية الآداب ، أكادير ، 1996 ، ص ص 67 - 68.

7) - Ferhat (H) ; Sapta des origines aux 14 siècle , Rabat , 1994 , p : 436

8) - جاء بإحدى نوازل العصر المريني أن الناس زمن الرخاء كانوا يستهلكون القمح عوض الشعير ، الونشريسي ، المعيار .... بيروت ، 1980 ، ج 4 ، ص 97. وفي ارتباط مع ظروف الرخاء باع التجار " سلعهم في الزاد ونحوه ، فلا يجدون من يشتريها منهم ، فيبيعونها بأبخس ثمن " ج 5 ص . 316

9) - من الأمور المعبرة أن صاحب المستفاد يذكر في أربع حالات حلول المجاعة بالمغرب في عصره. وفي كل هذه الحالات ثم الحديث عن أسعار الحبوب . التميمي (عبد الكريم) : المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد ، مخطوط مصور عن نسخة الأستاذ محمد المنوني ، صفحات ، 2و 21 و 31 و ..38

10) - Rosenberger (B) , Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc 15 - 18 siècle, Annales.E.S.C, Maî - Aout 1980, p : 493.

11) - لاتخفى أهمية حضور الكسكس في الولائم المغربية . وجاء عند الزجالي في أمثال العوام في الأندلس :" تعلمني الكسكسو ونعلمك شحل سبو ".

12) -العمري: مسالك الأبصار ، ضمن ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين للأستاذ محمد المنوني ، 1979 ، ص 298.

13) - الوزان : وصف افريقيا ، ج 1 ، ص 137 وص 260.

14) - نفسه ، ص 200. ونستحضر في هذا الشأن ما كتبه اليوسي في فترة متأخرة عن المرحلة المدروسة عن علاقة نوعية الغذاء لدى المغاربة ببعض العوامل المحددة له . " اجتمع الفاسي والمراكشي والعربي والبربري والدراوي ، فقالوا : تعالوا فليذكر كل منا ما يشتهي من الطعام ، ثم ذكر كل واحد بلغة بلده ، وما يناسب بلده ، ولا أدري أكان ذلك في الوجود أم شيء قدره ، وهو كذلك - يكون - ، وحاصله أن الفاسي تمنى مرق الحمام ، ولا يبغي الزحام ، والمراكشي تمنى الخالص واللحم الغنمي، والعربي تمنى البركوكش بالحليب والزبد ، والبربري تمنى عصيدة إنلي ، وهو صنف من الذرة بالزيت ، والدراوي تمنى الفقوس في تجمدرت ، وهو موضع بدرعة يكون فيه تمر فاخر ، مع حريرة أمه زهراء وحاصله تمر جيد وحريرة " أنظر : الحسن اليوسي : المحاضرات في الأدب واللغة ، تحقيق وشرح محمد حجي ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1982 ، ص ص 202 - 203.

15) - جاء عند صاحب اثمد العينين :" كانت مجاعة شديدة سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، فأتيت بحمل من دقيق القمح من دار الشيخ في شهر رجب . فقال لي : إجعله في خابية. ففعلت كما أمرني ، فادخل يده في الدقيق ثم أخرجه ، وقال لي : إياك أن يراه أحد غيرك أو يأخذ منه شيئا , فكان الناس يأتون بالجموع الكثيرة من المائة إلى الستين ونحو ذلك ، فما زلت أنفق منه رغدا إلى أن دخل المحرم ..." ، اثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين لأبي عبد الله بن تيجلات ، تحقيق محمد رابطة الدين ، رسالة مرقونة بكلية الأداب ، الرباط ، ج 1 ، ص 209.

16) - ابن عباد : مصدر سابق ، ص 156.

17) - نفس المصدر ، ص 196.

18) - ابن أبي زرع ؟ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الرباط ، 1973 . ص 95.

19) - القرطاس : ص 401

* - تحتاج الأوزان والنقود الواردة بالجدول إلى أن تضبط ، وهي كالتالي : - الصحفة : تسمى الوسق كذلك وتساوي 60 صاعا . وكان الصاع المريني مكونا من أربعة أمداد بمد الرسول (ص) . ومن المعلوم أن الصاع الموحدي كان يعادل ثلاثة أمداد وثلث بمد الرسول (ص). وقد حدد مفتي فاس في العصر المريني أحمد القباب المد في رطل وثلث .- الوقية : ذكر الغرفي أن الأوقية " إسم لمقدار من الوزن ... تفسيره

بالعرف لا بالوزن " . وحسب صاحب الدوحة المشتبكة فقد عادلت في العصر المريني 33,33 غراما. - الرطل : عادلت في العصر المريني 533,28 غراما. - الدرهم الفضي الكبير : كان يزن آنذاك 24 حبة من حبوب الشعير ويتكون من ثلاثة دراهم صغيرة . وهذا يعني أن الدرهم الصغير كان يزن ثمانية حبوب . - الدينار : قلما تحدد المصادر نوعية الدينار أكان ذهبيا أم فضيا. فالدينار الذهبي المريني حسب أحمد القباب ورد كما يلي : "دينار وقتنا أربعة وثمانون حبة " . وقد حدده بريت Brethes في 4,56 غراما. وكان يتجزء إلى نصف دينار وربعه وثمنه . أما الدينار الفضي فكان متكونا من عشرة دراهم صغار حول موضوع الأوزان والنقود بالدولة المرينية يمكن الرجوع إلى : - المنوني ، ورقات ، مرجع سابق .- أحمد القباب : شرح القواعد للقاضي عياض ، مخطوط القرويين رقم 352 ، دون ترقيم للصفحات .- الغرفي أبو العباس : اثبات مالابد منه لمريد الوقوف على أحوال الدينار والدرهم والصاع والمد ، مخطوط خاص مصور عن نسخة العلامة محمد المنوني . - أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة نشر حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد 6 ، 1958.

_ Brethes (J.D) : Contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques, Casablanca, 1939.

20) _ القرطاس ، ص : 401.

21) _ ابن عباد : مصدر سابق ، ص 254. وتسمى شرق المغرب البكوكا أو تابكوكا أو تلغودا. و" تسمى علميا ARUM ARISARUM ، وتنتمي إلى فصيلة الأراسيات ARACEAE، وهي نبات عديم الساق ، ذو أوراق قليلة العدد ، رمحية الشكل ، تعلوه زهرة بيضاء وسوداء ،وله بصيلة صغيرة لايتعدى حجمها حجم العنب " أنظر عبد المالك بنعبيد معلمة المغرب ج 4 ، ص 1315. وتجدر الإشارة إلى أن التحليل العلمي لمكونات إيرني أو البكوكا كان موضع أطروحة علمية دافع عنها الأستاذ أحمد ملحاوي من كلية العلوم بوجدة
Melhaoui (A) : Thèse de Doctorat Es - Sciences , Contribution à la Connaissance de la structure d'Arisarum Vulgare , 1993.

22) - إلى عهد قريب - سنة 1944 - كان سكان شرق المغرب يقضون يومهم في البحث عن إيرني أو البكوكا لمواجهة المجاعة التي حلت بهم . وما زالت بعض الأسر تحتفظ بأدوات الاستفادة من هذا النبات .

23) - ابن عذاري : البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص 325. ويشير القادري إلى أن المغاربة تناولوا الفيثور والخروب إبان مجاعة 1738هـ . حوليات نشر المثاني ، تقديم وتحقيق نورمان سيكار ، الرباط ، 1976 ، ص 52.

24) - للمزيد حول موضوع النباتات البرية والأعشاب ودورها في التطبيب بالمغرب ، يمكن الرجوع إلى كتاب تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب ، نشر كولان ورونو
Renaud et Colin : Tohfat al Ahbab , Glossaire de la matière médicale marocaine , Paris, 1934.

25) - كتاب المعزى : مصدر سابق ، ص ص 68 - 69 . وتحمل الخبيز حسب المناطق عدة أسماء وهي الخبيزة والبقولة وتيبى ووابجير ،كما أن صاحب كتاب المعزى يتحدث عن النبليا باعتبارها مرادفة للخبيز.

26) - مارمول ، ج 2 ، ص : 105.

27) - نذكر مثلا أن السكان بشرق المغرب كانوا يتناولون زمن المجاعة نباتات السلك والكلخة والتافغا وقرن الغزال والكرنينة (العسلوج) والتالما والحميضة. وقد ورد عند صاحب التشوف العسلوج والكلخ ، تحقيق أحمد التوفيق ، ص : 207.

28) - كتب كتابا سماه عمدة الطبيب في معرفة النبات ، وقد حققه محمد العربي الخطابي ضمن منشورات أكاديمية المملكة.

29) - يذكر صاحب الحلل الموشية أن نزلاء السجن أكلوا بعضهم البعض عقب مجاعة 571هـ. أنظر ص 138.

30) - راشد بن أبي راشد الوليدي : الحلال والحرام ، منشورات وزارة الأوقاف ، الرباط ، ص 191. وبعد أن سرد مواقف الفقهاء المالكية من شأن ذلك ، انتهى إلى أنه " لو وقع جزء من آدم ميت في قدر ولو وزن دانق - أي سدس درهم - فإن أكله محرم احتراما لا استقدارا ".

31) - روضة النسرين ، ص 61. ومن الملاحظ أن صاحب العبر وصاحب القرطاس لايشيران إلى تناول المحاصرين غائطهم . كما أن يحيى ابن خلدون مؤرخ الدولة العبدوادية لايذكر ذلك . فهل جاءت مبالغة ابن الأحمر في تهويل مضاعفات الحصار معبرة عن هدفه لإبراز عظمة المرينيين العسكرية وسطوتهم ، خاصة وأنه تجنى كثيرا بكتابه على بني عبد الواد ؟

32) _ ابن خلدون : المقدمة ، ص 644. ويقول عن عهد أبي الربيع :" تنافس الناس في البناء بالزليج والنقوش ، وتناغوا في لبس الحرير ، وركوب الفاره وأكل الطيب ..." العبر ، ج 7 ، ص 495.

33) - ابن عذاري : البيان المغرب ، ص 267 و ص 351.

34) - جاء عند ابن الخطيب أن : " ... أنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة ، فهم يمصون البلالة مص المحاجم ، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم " معيار الاختيار ، ص 146.

35) - عرفت سنة 1850 عند أهل سلا بعام ثمانية عشر مثقالا ، إذ بلغ مد سلا ورباط الفتح آنذاك - وهو مد كبير - ثمانية عشر مثقالا ، الناصري : الاستقصا ، ج 9 ، ص 61. وما زال عام 1944 يعرف لدى ساكنة شرق المغرب بعام "البون "Bon ، لأن المواد الغذائية كانت توزع عليهم بالوصل نظرا لقلتها . وتتحدث الروايات الشفوية عن حدوث وفيات على جوانب طرقات وأزقة مدينة وجدة آنذاك بفعل المجاعة.

36) - يذكر صاحب القرطاس أنه بفعل المجاعة الشديدة التي عرفها المغرب سنة 693 هـ كان الناس يحملون من الموتى أربعة وثلاثة واثنين على نعش واحد ، ص : 384.

37) - Rosenberger : Cugtures , op. cit. p : 494.

38) - المختار السوسي : المعسول ، البيضاء 1963، ج 17 ، ص : 257. وقد قدم الفقيه هذه الوصية بعد مجاعة 1878.

39) - ابن عذاري : مصدر سابق ، ص 351.

40) - ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص 146.

41) - الأنصاري : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار ، الرباط ، 1983 ، ص 42.

42) - نفس المصدر ، ص 24.

43) - الوزان ، ج 1 . ص 121.

43b) - نفسه : صفحات 63 و 260 و279.

44) - الأنصاري : مصدر سابق ، ص 38.

45) - القرطاس : ص 401.

46) - نفسه : ص 401.

47) - ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن ، الجزائر ، 1984 ، ص 191.

48) - إثمد العينين : مصدر سابق ، ص : 209 ، وأنظر كذلك : الحضرمي أبو عبد الله محمد السلسل العذب والمنهل الأحلى ... نشره محمد الفاسي ، مجلة المخطوطات العربية ، المجلد 010 ، ج 1 ، ص : 55.

49)- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، 1975 ، ج 2 ، ص ص 758 - 759.

50) - ابن خلدون : المقدمة ، ص 302 . ويقصد ابن خلدون بالاحتكار هنا الاختزان .